الباب الأول :

العصر والمؤلف.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول : العصر .

⋆ مدخل إلى عصر ياقوت .

لكل عصر من العصور سماته وسياسته التي سار عليها ، وله شخصياته التي عاشت فيه فرسمت لنا صورة واضحة عن ذلك العصر من خلال كتبهم وآثارهم التي تركوها لنا فمما لا شك فيه أن العصر له أثر كبير على العلماء الذين يعيشون فيه ، وللحكام دور مهم في هذا الأمر – أمر الازدهار العلمي – فكلما كانوا ممن ينتصرون للعلم والعلماء ويجزلون العطاء لهم ويعولونهم حتى يتفرغون للعلم ولا يبحثون عن عمل ليكسبوا قوتهم وقوت عيالهم وجدنا مبدعين في شتى المجالات ، والعصر العباسي شهد حكاما يحبون العلم والعلماء لذا نجده مع التدهور السياسي وكثرة الحروب منذ بدايته وحتى نهايته من العصور التي شهدت مجموعة من العلماء كان لهم الأثر البالغ على مسيرة علوم العربية حتى يومنا هذا ، وعرف هذا العصر بعصر الموسوعات الضخمة ، فحتى يتسنى لنا فهم شخصية ياقوت ونتمكن من الوقوف على المؤثرات الخارجية التي تأثر بها ، يجب علينا عرض سمات العصر الذي عاش فيه ، فالعصر والمؤلف كالروح والجسد لا طاقة لنا أن نفصل بعضها عن بعض ، فالأديب بشر يتأثر بكل ما يحدث حوله من صراعات وحروب وأحوال اجتماعية واقتصادية .

عاش ياقوت الحموي منذ عام ٥٧٥هـ حتى عام ٦٢٦هـ ، في رحاب العصور العباسية وهي أطول العصور عمرا إذ إنها تبدأ من انتهاء حكم الأمويين سنة ١٣٢ هـ وحتى هجوم التتار على العالم الإسلامي وسقوط بغداد الأول سنة ٦٥٦ هـ ، تلك الفترة شهدت عديدا من

الحروب بين المسلمين وغير المسلمين، فمنذ عام مولد ياقوت والحروب قائمة في أرض الإسلام حيث " نزل صلاح الدين على بانياس وأغارت سراياه على الفرنج ثم أخبر بمجيء الفرنج فبادر في الحال وكبسهم فإذا هم في ألف قنطارية وعشرة آلاف رجل فحملوا على المسلمين فثبتوا لهم ثم حمل المسلمون فهزموهم ووضعوا فيهم السيف ثم أسروا مائتين وسبعين أسيرا منهم مقدم الديوية فاستفك نفسه بألف أسير وبجملة من المال وأما ملكهم فانهزم جريحا ".(١)

وفي سنة ٥٧٦ هـ نزل صلاح الدين على حصن من بلاد الأرمن فافتتحه وهدمه وكان يوما مشهودا(٢) .

وقد خاض الناصر صلاح الدين حروبا كثيرة مع الصليبيين كانت له الغلبة في أغلبها وفي عهده كان للإسلام والمسلمين شأن كبير ، وعم الرخاء في كل أرجاء مملكة الإسلام(٣) .

وظهرت الفتن ، ففي سنة ٥٩٥ هـ حدثت فتنتان عظيمتان الأولى في هراة بين فخر الدين الرازي والزاهد مجد الدين بن قدوة ، وذلك لما شتم الرازي ابن قدوة ، فحزن ابن عمه حزنا شديدا وخطب في الناس قائلاً :

" أيها الناس لا نقول إلا ما صح عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ، وأما قول أرسطو وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابي فلا نعلمها فلأي شيء يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يذب عن دين الله . وبكى فأبكى الناس وضجت الكرامية وثاروا من كل ناحية وحميت الفتنة ، فأرسل السلطان الجند فسكنهم وأمر الرازي بالخروج "(٤) .

---

(١) " شذرات الذهب في أخبار من ذهب " : ابن العماد الحنبلي : ٤ / ٢٤٩ ، دار الآفاق الجديدة - بيروت د . ت .
(٢) انظر " شذرات الذهب " ٤ / ٢٥٤ ــ ٢٥٥ .
(٣) انظر كتاب " الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية " لشهاب الدين المقدسي ، تحقيق إبراهيم الزيبق ، طبعة مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
(٤) " شذرت الذهب " : ٤ / ٣١٩ .

والفتنة الثانية حدثت بدمشق وهي فتنة الحافظ عبد الغني وكان أمارا بالمعروف

داعية إلى السنة . فقامت عليه الأشعرية وأفتوا بقتله . فأخرج من دمشق طريدا(١) .

وقبل هاتين الفتنتين فتنة كانت بأصبهان ، وكانت فتنة هائلة كما وصفها ابن العماد ، يقول : " فيها وقعت فتنة هائلة بأصبهان بين صدر الدين عبد اللطيف بن الخجندي وغيره من أصحاب المذاهب سببها التعصب للمذهب فخرجوا للقتال وبقي الشر والقتل ثمانية أيام قتل فيها خلق كثير وأحرقت أماكن كثيرة "(٢) .

فمنذ ولادة ياقوت والصراعات والحروب بين المسلمين والصليبيين ، والفتن في شتى أرجاء المملكة الإسلامية ، وانتشار الفقر والمجاعات ، وظهور المذاهب والفرق وكانت هذه هي السمة الرئيسية للعصور العباسية عامة ، " فقد كان عصرا مشحونا بعوامل الفتن والاضطرابات والفوضى وفي هذا الجو المضطرب لا يمكن أن تتوافر أسباب الهدوء وعوامل الاطمئنان النفسي ، والتشجيع المادي ، وهي بواعث البحث العلمي التي تهيئ فرص الدراسة للعلماء "(٣) .

لكن شذ هذا العصر عن تلك القاعدة فازدهرت العلوم عامة ، وعلوم العربية خاصة فوجدنا الأدباء والشعراء والفقهاء والنحويين والبلاغيين وعلماء الكلام والمحدثين والمؤرخين ولعل السبب في ذلك هو اهتمام الخلفاء العباسيين بالعلم وبذل العطاء للعلماء ، فها هو عماد الدين زنكي أحد السلاطين وقد اشتهر بحبه للعلم والعلماء خاصة علماء الحنفية وقد ابتنى لهم مدرسة بسنجار وشرط لهم طعاما يطبخ لكل واحد منهم يوميا(٤) ، فقد كان

(١) " الشذرات " : ٤ / ٣١٩ .
(٢) " الشذرات " ٤ / ١٨٨ .
(٣) " ياقوت الحموي الجغرافي الرحالة الأديب " أبو الفتوح التوانسي : ٥٦ .
(٤) " البداية والنهاية " لابن كثير ١٦ / ٦٨٠ ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي، طبعة دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

العلماء يتجمعون في بلاط الخلفاء ، بل كان منهم الشعراء ، فكان الخليفة العباسي على قدر كبير من العلم ، فوجدنا فيهم الشعراء والأدباء .

ومن الأدلة الواضحة على ازدهار ونهضة الحياة العلمية في تلك الآونة وجود بعض الأمراء والسلاطين ممن كانوا يشتهرون بالصناعة الأدبية وكتابة الشعر ومنهم تاج الملوك مجد الدين بوري أخو السلطان صلاح الدين وله ثلاث وعشرون سنة ، كان أديبا شاعرا وله ديوان صغير جمع فيه مكارم الأخلاق والشجاعة ومن شعره :

(من السريع)

"أقبل من أعشقه راكبا من جانب الغرب على أشهب
فقلت سبحانك يا ذا العلى أشرقت الشمس من المغرب(١)

ومنهم أسامة بن منقذ مؤيد الدولة أبو المظفر الكناني الشيرازي ، كان من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيرز وعلمائهم وشجعانهم ، وكان له تصانيف كثيرة في الأدب والأخبار والنظم ، وتوفي يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان ودفن من الغد شرقي جبل قاسيون .

والعماد الأصبهاني صاحب الخريدة توفي سنة ٥٩٧ هـ ، وهو معروف بالنبوغ الأدبي فتكفيه الخريدة ليعلو قدره بين الأدباء ، وكذلك الوزير القفطي علي بن يوسف الذي مدحه ياقوت وأرسل له رسالته التي يشكو له فيها الحال التي آل إليه .

ومن النابغين أيضا في هذا العصر شميم الحلي علي بن الحسن بن عنتر المتوفي ٦٠١هـ وكان نحويا شاعرا لغويا .

وهناك كمال الدين بن العديم صديق ياقوت الحموي .

---

(١) الشذرات : ٤ / ٢٦٥ .

- الحياة السياسية .

قسم المؤرخون العصر العباسي إلى قسمين ، يبدأ القسم الأول من سيطرة أبي عبد الله السفاح على مقاليد الحكم وكان تنصيبه خليفة للمسلمين بالكوفة ، كان ذلك سنة ١٣٢هـ وانتهى بسيطرة بني بويه على الخلافة ببغداد وذلك في عام ٣٣٤هـ ، والعصر العباسي الثاني الذي يبدأ من هذا التاريخ حتى انتهاء الخلافة والحضارة العباسية على أيدي التتار الذين دمروا بغداد مركز الخلافة آنذاك وذلك في سنة ٦٥٦هـ ، كما قسم المؤرخون الحقبة الثانية من العصر العباسي إلى قسمين ووضعوا حاجزا بينهما ، وهذا الحاجز هو استيلاء الأتراك على بغداد بدلا من بني بويه وكان ذلك عام ٤٤٧هـ .

وهناك من قسمها حسب سيطرة العناصر غير العربية على مقاليد الحكم في ظل الحكم العباسي بالطبع ، فقسموه إلى ثلاث عصور : الأول منذ قيام الدولة العباسية وحتى سنة ٢٣٢هـ وسموه عصر النفوذ الفارسي ، والثاني : من سنة ٢٣٢هـ حتى سنة ٣٣٤هـ وسموه بعصر النفوذ التركي ، والثالث : من سنة ٣٣٤هـ وحتى سنة ٦٥٦هـ ووسموه بالعصر السلجوقي .

وحقيقة إن كل تلك التقسيمات وغيرها اجتهاد وليست أصلا ، ولكن كل من قسمها اختار لتقسيمه حدثا معينا عده فارقا بين دولتين ، ووضع تقسيمه على هذا الأساس ، فكل من حكم المسلمين في هذه الفترة هم عباسيون ؛ لذا فلا داعي لهذا التقسيم ، فالتقسيم لا يكون إلا إذا انتهى حكم معين وبدأ حكم جديد كالذي حدث مع الأمويين كان عصرهم العصر الأموي ، وبعد انتقال الحكم في أيدي العباسيين أطلقنا عليه العصر العباسي ، لذا فما الداعي لتقسيم عصر واحد إلى ثلاثة عصور ، ومن ثم فمن الممكن أن نطلق عليه العصر العباسي دون تقسيمه أبدا ، خاصة أن من قسمه على أساس الأحداث الجليلة كسيطرة بني بويه مثلا ، أو استيلاء الأتراك على مقاليد الحكم ، لا يمكن أن نعد هذه الأحداث فاصلا كحادثة التتار ، كما أن من قسمها تبعا للعصور الأدبية فالأدب والأديب لا يمكن أن

ينفصلا عن جذورهما يأتي اللاحق على أكتاف السابق مكملا له ، وليس وحدة منفصلة عنه ، فأنى لنا أن نفصل الأدب في العصر الأموي عنه في العصر العباسي فكيف بفصلنا وتقسيمنا للعصر الواحد ! .

وكما لجأ بنو أمية إلى الروم لجأ بنو العباس إلى الفرس ، وتأثروا بهم فاختلط العرب مع كل من الفرس والروم وكذلك الأتراك ، كل هذا أدى بالطبع إلى نشوب المعارك والخلافات ، كما ظهر ما يسمى بالشعوبية التي كانت في بادئ ذي بدء تدعو إلى التقارب بين الشعوب أي بين الفرس والروم والأتراك والعرب ، وبمرور الوقت انتقلت إلى مرحلة العداء خاصة بين العرب والفرس ، ولم تكن حركة الشعوبية تلك هي الحركة الوحيدة التي جدت على الأمة الإسلامية بل لقد ظهرت حركة أشد وطأة وهي حركة الزندقة ، وانقسمت الزندقة إلى ثلاثة أنواع وهم :

- **زندقة فكرية** : غير مخرجة عن الملة ولا تؤدي إلى الكفر ، وهي الامتثال لبعض الأفكار الفارسية القديمة .
- **زندقة دينية** : وهي التي تخرج صاحبها عن الملة الإسلامية ، وهي التي تدعو إلى معاداة الدين الإسلامي والخروج على تعاليمه والدعوة إلى بعض الديانات الفارسية القديمة ، وهي أشد خطرا من الزندقة الفكرية .
- **زندقة اجتماعية** : وهي تعني الجهر بالمعاصي والتعدي على المقدسات الإسلامية ، والخروج عن الآداب الإسلامية وأخلاق الإسلام ، وتعني الاستمتاع بالحياة والإقبال على الدنيا دون العمل للآخرة وتفننوا في ذلك ، فاستباحوا كل

ما حرمه الإسلام [١] .

هذه البدايات التي بدأت بها الخلافة العباسية ، وامتد ذلك التأثير حتى انتهائه على أيدي التتار في عام ٦٥٦هـ ، وانقسام الدولة العباسية إلى عدة دويلات صغيرة في شتى أركانها ، كل واحدة منها تريد أن تفتك بالأخرى وتحتل مكانها فمن هذه الدويلات :

دولة الأغالبة [٢] : وقامت هذه الدولة بتونس في إفريقية ، وكان ذلك في سنة ١٨٤هـ ، وانتهت سنة ٢٦٩هـ .

دولة السلاجقة : نشأت هذه الدولة في آسيا ، تحديدا في التركستان في وسط آسيا واستطاعوا التوسع ، وقضوا على الغزنويين ، كما استطاعوا أن يستولوا على الكثير من ممتلكات الروم ، والعصر العباسي الثالث يمتد من سنة ٣٣٤هـ وهي السنة التي سيطرت فيها الدولة السلجوقية على بغداد حتى سنة ٦٥٦هـ أي سنة سيطرة التتار على بغداد والقضاء عليها [٣] .

كما قامت العديد والعديد من الدويلات كدولة خوارزم شاة والدولة الطولونية(٤) (٢٥٤ هـ) في مصر والشام ، وفي نفس العام تأسست الدولة الصفارية [٥] ، وبانتهاء هذه الدولة جاءت على أكتافها الدولة السامانية [٤] (٢٦١هـ) ، وقامت الدولة الإخشيدية والعبيدية بزعامة أبي عبيد المهدي ، ودولة الغزنويين ، وغيرها العديد والعديد من الدويلات الصغيرة .

---

(١) انظر " الأدب في عصر العباسيين" أ . د محمد زغلول سلام : ٧٤ – ٧٨ ، الناشر منشأة المعارف – الإسكندرية .
(٢) انظر الكامل في التاريخ " لابن الأثير : ٦ / ٥٦ ، تصحيح محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت الطبعة الثالثة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨م .
(٣) انظر " صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي " : ١ / ٤٧٥ دكتور علي محمد الصلابي " ، نشر دار الفجر ٢٠٠٥م ، في جزأين .
(٤) تأسست على يدي الأمير أبي العباس أحمد بن طولون توفي سنة ٣٣٤ هـ .انظر وفيات الأعيان١/ ١٧٥ – ١٧٦ .
(٥) تأسست على يدي يعقوب بن الليث الصفار (٢٥٤هـ - ٢٥٦ هـ) في سجستان . انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير : ٦ / ١٩٣ ، ١٩٧ – ١٩٨ ، ٢٦٠ – ٢٦٢ .
(٤) نسبة إلى سامان وكان يعتنق المذهب الزرادشتي ، ثم ارتد عنه واعتنق الإسلام ، تولى خراسان في آخر عهد الأمويين . انظر : الكامل في التاريخ : ٦ / ٢٥٣ – ٢٥٥ .

*** حادثة هجوم التتار على خراسان .**

من الحوادث المهمة في الفترة التي عاش فيها ياقوت حادثة هجوم التتار على الدول الإسلامية بوحشية وعدوانية ، ولم تتركها كل كتب التاريخ وكان لتلك الفاجعة أثرها على المؤرخين والشعراء والأدباء فكل منهم تناولها من ناحيته لكنهم اتفقوا على أنها خطب جليل وشيء مروع .

وقد ظهر جنكيز خان وجنوده في سنة ست عشرة وستمائة وعبروا نهر جيحون وبدأت الحرب بينهم وبين خوارزم شاه ، ودارت بينهم حروب كثيرة قتل فيها كثيرا من المسلمين ومن التتار، حتى استولى التتار على بخارى ودخلوها فدمروها وقتلوا كل من كان فيها ، وألقوا النيران على مساجدها ودورها ومدارسها حتى صارت خاوية على عروشها(١)

وواكب في هذا العام خطب جليل حيث قام الملك المعظم بهدم وتخريب سور بيت المقدس ، وما خربه إلا خوفا من الفرنج وعجزا عن محاربتهم ، فتشتت أهلها وهربوا خوفا من الفرنج ، واستولى الفرنج على دمياط وجعلوها دار هجرتهم وحصنوها لتكون لهم مأوى وسند في حربهم مع المسلمين .

فالعالم الإسلامي زاد تشتته وضعفه بداية من هذا العام حيث هجم التتار بوحشيتهم وعددهم الهائل عليه من المشرق ، وتنازعه الفرنج من المغرب ، هذا بخلاف ما لاقاه الناس من جوع ، وفقر ، وكوارث طبيعية ، وزلازل ، وانتشار الأوبئة والأمراض .

وقام المؤرخون بوصف وحشية التتار، يقول ابن كثير : " وبالجملة فلم يدخلوا بلدا إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلة والرجال ، وكثيرا من النساء والأطفال ، وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه ، وبالحريق إن لم يحتاجوا إليه ، حتى إنهم كانوا يجمعون

(١) " البداية والنهاية " : ١٧ / ٨٠ – ٨١ ، " شذرات الذهب " : ٥ / ٦٥ .

الحرير الكثير الذي يعجزون عن حمله ، فيطلقون فيه النار فيحرق وهم ينظرون إليه ويخربون المنازل ، وما عجزوا عن تخريبه أحرقوه ، وأكثر ما يحرقون المساجد والجوامع - لعنهم الله تعالى- وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين فيقاتلون بهم ، ويحاصرون بهم وإن لم ينصحوا في القتال قتلوهم "(١) .

وقد وصف ياقوت الحموي هذه الحادثة وما فعله التتار بخراسان ، وذلك في رسالته التي بعث بها إلى القفطي الوزير ، يقول :

" فإنا لله وإنا إليه راجعون من حادثة تقصم الظهر، وتهدم العمر، وتفت في العضد وتوهي الجلد ، وتضاعف الكمد ، وتشيب الوليد ، وتنخر لب الجليد ، وتسود القلب ، وتذهل اللب ، فحينئذ تقهقر المملوك على عقبه ناكسا ، ومن الأوبة إلى حيث تستقر فيه النفس الأمن آيسا ، بقلب واجب ، ودمع ساكب ولب عازب " .

ثم يقول متحدثا عن أعداد الموتى على أيدي التتار قائلا :

"وألحق بألف ألف ألف ألف هالك بأيدي الكفار أو يزيدون، وخلف خلفه ذخيرته ومستمدة عيشته"(٢) .

واستقصى ابن الأثير في كتابه الكامل هذا الخطب الجليل وهول ، وقال : " لم يبتل أحد من الخلائق كابتلاء المسلمين بالتتار " ، وأفرد لتلك الحادثة فصلا كاملا ، وذكر البلاد التي قاموا بتخريبها وحرقها ، وقال إن السبب في استقامة الأمور للتار وجعلهم يفعلون ما يريدون بممالك الإسلام أن السلطان خوارزم شاه قد استقل بالأمور وانفرد بالحكم وقتل الملوك والأمراء ، فلما انهزم ومات بعدما هرب منهم لم تجد البلاد من يزود عنها ، ولم يجدوا

(١) " البداية والنهاية " : ١٧ / ٨٨ .
(٢) " وفيات الأعيان " : ٣ / ٢٧١ .

قائدا يجمع شتات أمرهم ويلتفوا حوله ، فصار التتار في نزهة وليسوا في حرب ، فكانوا يدخلون البلد تلو البلد دون رادع(١) .

والسبب في انتصار التتار على الدولة الإسلامية تحت الخلافة العباسية ما شهده هذا العصر من تفكك وانحلال سياسي ، فكان الخلفاء المسلمون يحاربون بعضهم بعضا وكذلك الحروب الصليبية التي أجهدت المسلمين ، كما أن الدولة الإسلامية قد تفككت إلى دويلات صغرى كالفاطمية والسلجوقية مثلا ، وكذا التفرق المذهبي فهناك السنة والشيعة وغيرهما فالفاطمية كانت دولة شيعية ومقرها في مصر وكانت الخلافة العباسية سنية فحدثت حروب كثيرة بين الانتصار للمذهب الشيعي والانتصار للمذهب السني ، حتى أن الشيعة قد خانوا الدولة الإسلامية وخلفاءها ، فقد خان ابن العلقمي الوزير الشيعي الرافض مولاه الخليفة المستعصم بالله العباسي السني بالطبع ، وقام بتسليم بغداد للتتار.

كما ساعد التتار أيضا دخول العناصر غير العربية في الحكم كالأتراك والفرس والأكراد والأرمن والأقباط(٢) .

ويعتبر التتار من أعظم ما سلط على المسلمين فهي فاجعة قد دمرت الإسلام وأثرت سلبا على العلم والعلماء ، فيقال إنهم قتلوا في بغداد وحدها أكثر من خمسمائة عالم في يوم واحد فيا لهذا الحادث الجليل ! كما أنهم جعلوا الكتب الإسلامية في مكتبة بغداد جسرا لهم حيث ألقوها في نهر دجلة ليعبروا عليها ، وكانوا يأتون الحوامل ويبقرون بطونهم، ويخرجون أولادهن يتحركون أمامهن فيقتلونهم، وهي حية تشاهد ذلك ثم تموت ، فيا لقسوة قلوب هؤلاء التتار! ويا لوحشيتهم ! .

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير : ١٢ / ٣٥٨ – ٣٩٨ ، طبعة دار صادر بيروت – لبنان ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م ، "البداية والنهاية" : ١٧ / ٨٨- ٩٧ .

(٢) "فوات الوفيات " : ٢ / ٣١٣ ، ط : مصر / ١٩٢٥م ، تحقيق : محي الدين عبد الحميد .

فمما لاشك فيه أن هجومهم على الإسلام ما هو إلا رد فعل لفساد قد حدث في الأمة الإسلامية في ذلك الوقت ، فانظر قوله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم - : " وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا "(١) .

أليس هذا دليلا على أن المسلمين في ذلك الوقت قد اعتدوا على بعضهم البعض ! وكان ذلك سببا في إرسال رب العزة عليهم التتار حتى يستبيحوا بيضتهم .

الحياة الاجتماعية .

الحياة الاجتماعية انعكاس للحياة السياسية فكلما ساءت الحالة السياسية ساءت الحالة الاجتماعية ، فظهر نظام الإقطاع الذي قسم المجتمع إلى نصفين نصف يملك كل شيء ، ونصف لا يملك شيئا ، وقد تكون المجتمع من جنسيات متعددة - وإن كان السواد الأعظم من العرب - فهناك العنصر الفارسي والكردي والتركي والأرمني ، وبالطبع لكل عنصر اتجاهاته وأفكاره ، فصارت الحياة الاجتماعية مفككة مهتزة وصار الشعب لا يشعر بالانتماء للدولة الإسلامية ، كما ساعد على سوء الحياة الاجتماعية عدم توافر الأمن والأمان في الدولة الإسلامية ، حيث الحروب والمنازعات على السلطة بين الخلافة العباسية والدولة السلجوقية من ناحية ، والدولة الشيعية الفاطمية (٢) من ناحية أخرى ، وهناك حروب خارجية مع التتار والصليبيين ، وهناك حروب مذهبية بين السنة والشيعة وغيرهما .

كما أدى ثراء بعض الفئات إلى انتشار تجارة الرقيق فاقتنوا الجواري والغلمان وكان ممن بيع صاحبنا ياقوت حيث اشتراه عسكر الحموي ليساعده في التجارة .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب : الفتن وأشراط الساعة ، باب : هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم : ٢٨٨٩ .
(٢) " البداية والنهاية " ابن كثير : ١٦ / ٦٩٣ – ٦٩٤ ، " شذرات الذهب " : ٤ / ٣٢٣ .

انقسم المجتمع الإسلامي في هذه الفترة - فترة حكم العباسيين - إلى ثلاث طبقات : طبقة الخواص وهي طبقة الأمراء والوزراء والقادة والسياسيين والعلماء ، والثانية هي طبقة الحرفيين والصناع والتجار وتسمى طبقة العوام ، والثالثة هي طبقة الفقراء ومن الممكن أن نضيفها تحت طائلة العوام ، لكنهم بالطبع أكثر فقرا من التجار والحرفيين هذا من الناحية المادية وناحية النفوذ ، أما من ناحية التمدن والحضارة فانقسم المجتمع العباسي إلى قسمين وهما : قسم المدنيين أي الذين يسكنون المدن كبغداد والبصرة والكوفة وغيرها ، والآخر : هو أهل الريف أي الذين يسكنون القرى ، وصاحب عدم الاستقرار السياسي ظهور ظاهرة غير صحية إن وجدت في أي مجتمع أفسدته ألا وهي ظاهرة الجبن والخوف ، فالفساد السياسي يساعد على استفحال ظاهرة الجبن ، فكان الناس في هذه الفترة عندما يعتريهم شيء من الظلم أو فقر الحال تضرعوا إلى الله ولجؤوا إلى المساجد بدلا من العمل بقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده "(١) .

فابتعدوا عن قوة الإيمان ومالوا إلى ضعف الإيمان ، وأرادوا تغيير مجرى مجتمعهم بالاكتفاء بالدعاء والتضرع والمكوث في المساجد أي أرادوا تغييره بالقلب الذي هو أضعف الإيمان ، وهذا ما ساعد على انتشار واستفحال أمر الطرق الصوفية التي تتعامل مع الأمور الجادة بطريقة سلبية وكانت أفضل طرق اعتراضهم على الفساد اللجوء للعزلة والانفصال عن المجتمع .

وانتشر شرب الخمر وكذلك حشيشة الدينار حيث فضلها بعضهم على الخمر خاصة الصوفية فهي تساعدهم في حياتهم الروحية التي يدعونها ، حتى أن الخمور كانت تدخل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه " كتاب الإيمان " ٧٨ .

البلاد بالسفن ، ففي سنة ٥٣٧ هـ دخلت سفن فيها خمر فربطت أمام باب المدرسة فأنكر الفقهاء ذلك فضربهم الأعاجم(١) .

وظهر أفراد تشبه العصابات سموا بالعيارين ، وهم أقوام كانوا يحتمون بالأمراء ويأخذون أموال الناس بالقوة ، يقول ابن الجوزي في حوادث سنة ٥٤٣هـ ، وكان معاصرا لتلك الفترة : " فظهر من العيارين ما حير الناس وذاك أن كل قوم منهم احتموا بأمير فأخذوا الأموال وظهروا مكشوفين وكانوا يكبسون الدور بالشموع ، ويدخلون الحمامات وقت السحر فيأخذون الأثواب ، وكان ابن الدجاجي جالسا ليلة بالحربية فكبسوها واخذوا عمامته ودخلوا إلى خان بسوق الثلاثاء بالنهار ، وقالوا : إن لم تعطونا أحرقنا الخان ولبس الناس السلاح لما زاد النهب وأعانهم وزير السلطان ، فظهروا وقتلوا المصالحة وزادت الكبسات حتى صار الناس لا يظهرون من المغرب "(٢) ، وكان لهؤلاء العيارين عيون من الرجال والنساء وكانوا يتتبعون من يبيع شيئا في السوق ويمشون وراءه حتى يأخذوا ما معه من المال ، حتى خاف الناس وأغلقوا دكاكينهم ، وفزع الناس إلى السلطان مرارا فلم يجبهم ، ولم يكن العياريون من عامة القوم وغوغائيهم فقط ، بل كان منهم ابن عم السلطان مسعود وهو ابن القاروت ، وقد صلبه السلطان واستباح دم العيارين فسكن الناس وهدؤوا.

وفي تلك الفترة ابتلى الله العالم الإسلامي بكوارث لا حصر لها بعيدا عن التتار والصليبيين والحروب الداخلية ، حيث انتشر الفقر وعم الفساد ، وانتشرت الأوبئة والزلازل ونقصت المياه .

---

(١) " المنتظم " لابن الجوزي : ١٨ / ٢٦ ، دراسة وتحقيق : محمد عبد القادر عطا ومحمود عبد القادر عطا ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م .
(٢) المصدر السابق : ١٨ / ١٧ – ١٨ .

" حدث في عام ست وتسعين وخمسمائة في مصر غلاء شديد فهلك الغني والفقير وعم الجليل والحقير وهرب الناس منها نحو الشام فلم يصل إليها إلا القليل ، وتخطفهم الفرنج من الطرقات وغروهم في أنفسهم واغتالوهم بالقليل من الأقوات "(١) .

وامتدت تلك الكارثة حتى العام التالي والذي بعده ، حيث الجوع المفرط والموت حتى لو قلت أن ثلاثة أرباع أهل الإقليم ماتوا ما أبعدت وكان البشر يأكلون لحوم بعضهم بعضا ، واشتد الغلاء وأكلت الكلاب والميتة ، وكان الرجل يستضيف صاحبه فإذا خلا به ذبحه وأكله بل وكان الوالدان يأكلان أبنائهم ، فانظر إلى الكيفية التي وصلت إليها العلاقات بين الناس بعضهم البعض وبين أفراد الأسرة الواحدة .

وانتشرت الأوبئة في شتى أرجاء البلاد حتى هلكت قرى بأكملها عن بكرة أبيها فصارت أموالهم وأنعامهم بلا عائل ولا مالك لها ، فحدث أن بادت ثماني عشرة قرية من بلاد عنزة بين الحجاز واليمن وبقي قريتين فقط ولم يصبهم أي أذى بل إنهم حتى لم يشعروا بما حدث لمن حولهم .

وكان على العكس من ذلك حياة أخرى مليئة بالترف والبذخ والغناء ، وهي حياة الحكام والوزراء والقادة والأمراء .

هذه هي الحياة الاجتماعية التي عاشها الناس في ظل الخلافة العباسية التي ما لبثت أن تتدهور وتسوء أحوالها خاصة بعد ضعف الخلفاء واعتمادهم على العناصر غير العربية ، وهي الحياة التي عاشها ياقوت فهو أحد الذين نشؤوا تحت ظل هذه الخلافة والتي كان لها التأثير المباشر عليه ، فأسر صغيرا بسبب انتشار تجارة الرقيق ، وهرب بسبب الحياة المذهبية عندما اختلف مع أحد المتعصبين للإمام علي – رضي الله عنه – وكاد أن

(١) " البداية والنهاية " : ١٦ / ٧٠٣ ، " شذرات الذهب : ٤ / ٣٢٨ .

يفتك به أنصار آل البيت كما يزعمون ، ثم هرب مرة أخرى بسبب التتار وهجومهم الكاسح الشرس على البلاد الإسلامية ، وهكذا فهو شخص من الذين يعيشون في هذا العصر ويتأثرون به .

⋆ الحياة الفكرية .

الانحلال السياسي والتفكك وانتشار العناصر غير العربية والتمذهب الذي ظهر في العالم الإسلامي ، وانتشار نظام الإقطاع الذي فصل المجتمع إلى جزأين جزء السادة والأمراء ، وجزء العبيد والفلاحين والعمال ، ووجود ديانات وعقائد كثيرة من سنة وشيعة وباطنية ويهود ونصارى وغيرهم ، أدى إلى حدوث شيء سلبي في الحياتين السياسية والاجتماعية ، ولكن هذا الشرخ قد أدى إلى إيجابيات في الحياة الفكرية في حيث أرغم الملوك والأمراء على استقطاب العلماء والفقهاء وبذل العطايا والهدايا لهم حتى يسيطروا على أفكارهم وبالتالي يسيطروا على فكر عامة الشعب ، كما شجعت المذاهب الناس على الاهتمام بعلوم القرآن والحديث ، والاهتمام بعلوم الشريعة حتى يستطيعوا التصدي للأفكار الشيعية والحشيشية والباطنية التي أخذت في الانتشار ، وكانت تلك الاجتهادات الفكرية والحروب بين أنصار كل مذهب تؤدي إلى حوادث مؤسفة ، فقد عادى الحنابلة العلوم العقلية ونصبوا المجانيق لحرب الفلاسفة ، بل وقد رموهم بسوء العقيدة ، حتى وصلت الحال إلى أنهم كانوا يهجمون على بعض المدارس ودور الكتب ويحرقون ما بها من كتب بعد أن اتهموها بسوء العقيدة .

" لم يكن انقسام الدولة العباسية بعد عصر المتوكل على الله العباسي ، والانحلال السريع الذي بدأ يتسرب إلى جسم هذا العملاق الضخم ، والتفكك الذي أصاب أجزاء الدولة العربية الإسلامية الكبرى نذير سوء بالنسبة للتفكير العلمي ، واستمرار حركة النمو

في العلم العربي ، بل على العكس رأينا الحكام الجدد في الدول والإمارات التي انفصلت عن خلافة بغداد ، وأصبح لها كيان مستقل يعملون في نشاط دائب متصل على دعم ملكهم بكل مقومات الحضارة ، وقد ساعدهم على ذلك أن قوة الدفع للحضارة العلمية في بغداد في عصر المأمون كانت وما تزال على درجة من القوة ، بحيث أفسحت المجال أمام هؤلاء الحكام للاستعانة بعدد كبير من العلماء في كل علم وفن ، لتأسيس ملك لهم يقوم على دعائم وطيدة راسخة ، تضمن له البقاء والاستمرار ، ولذلك نلحظ بقوة في العصر العباسي الثاني الذي يمتد في التاريخ من (٤٤٧ هـ - ٦٥٦ هـ) ، ويبدأ من يوم أن وضع السلاجقة أيديهم على زمام الحكم في بغداد إلى أن سقطت عاصمة الخلافة العباسية في أيدي التتار ، إن الحركة الفكرية كانت ما تزال ناشطة في هذا العصر ، وقد تردد صدى هذه النهضة الفكرية في بلاط الغزنويين في الشرق والفاطميين والأيوبيين في مصر والأمويين في الأندلس ، وكان من بواعث هذه النهضة ظهور بعض الفرق الدينية من شيعة وسنية وقد استعانت هذه الفرق بالعلم وسيلة لتحقيق أغراضها السياسية ، عن طريق الحجاج والجدل، واستخدام الأدلة العقلية ، إذ كان كل فريق ينتصر لآرائه ، ويؤيدها بسيل من الحجج المنطقية والأدلة النقلية ، وقد كانت هذه النهضة الفكرية تسير في طريقها، في حين كان العالم الإسلامي يشكو من الضعف والتصدع والانحلال السياسي "(١) .

كما أدى دخول عناصر غير عربية إلى انتشار الفلاسفة والملاحدة فظهر علماء فلاسفة أمثال السهروردي وابن عربي وابن الفارض ، وانتشر الصوفية وحلقاتهم في شتى أرجاء البلاد ، والسبب في ذلك الظلم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وحالات الفقر والجوع والمرض التي عاشها الناس في هذه الأوقات مما أدى بهم إلى الانصراف إلى حب

(١) " ياقوت الحموي الجغرافي الرحالة الأديب " أبو الفتوح التوانسي : ٤٦ – ٤٧ .

الروح وليس الجسد ، فلم يجدوا ما يخرجهم من هذه الحالة سوى التصوف ، كما شاع علم التنجيم وانتشر المنجمون في هذا العصر ، وظهر على العكس من ذلك المحدثين والفقهاء فظهر ابن الجوزي صاحب المؤلفات في التاريخ والتراجم واللغة والحديث والقرآن ، وظهر ابن قدامة المقدسي صاحب المغني ، وظهر السرخسي صاحب المبسوط ، وابن الصلاح وغيرهم من الفقهاء .

واهتم العلماء بالسيرة النبوية وامتد الاهتمام إلى التاريخ والتراجم ، ثم إلى الاهتمام بتواريخ البلدان ، فظهر عز الدين ابن الأثير صاحب كتاب الكامل ، وظهر ابن النجار صاحب كتاب "ذيل تاريخ بغداد" وظهر ياقوت الحموي فألف في "الأدباء"وألف في "البلدان" ، وغير ذلك كثير ،كما ازدهرت علوم اللغة فظهر الزمخشري والبكري والجواليقي .

كما اهتم الخلفاء بالمؤسسات العلمية ، فكان العلم يؤخذ من المدرسةأو دور العلم أو المساجد ، أو بيوت العلماء ، وانتشرت خزانات الكتب ودور العلم والمكتبات وقد سرد لنا ياقوت كثيرا منها في معجمه للأدباء ومنها : " بيت الحكمة "(١)، ومن الخزانات " الخزانة الأشرفية "(٢)، و"خزانة كتب تاج الدين الكندي "(٣)، "دار الكتب برباط المأمونية "(٤) ، " مكتبة القاضي الفاضل "(٥) وغيرها كثير ؛ واهتم ابن الجوزي في كتابه "المنتظم " بذكر هذه المدارس فقد كان يحدد تاريخ بناء المدرسة ومن عين عليها ، وما بها من خزائن للكتب ، وكيفية الإنفاق عليها ، وأورد لنا عددا من الأساتذة الذين عملوا بها .

(١) " معجم الأدباء " : ٤ / ١٦٣١ .
(٢) المصدر السابق : ٥/ ٢٠٣٥ ، ٢٠٣٦ .
(٣) المصدر السابق : ٣ / ١٣٣٢ .
(٤) المصدر السابق : ٣ / ٢٢٦٦ .
(٥) المصدر السابق : ٤ / ١٥٦٢ ، ١٥٦٣ .

يقول الأستاذ محمود مصطفى عن الحالة الفكرية والعلمية في هذا العصر: " ومن مزايا هذا العهد انتعاش السنة بعد أن تضعضعت على يد الدولة البويهية بالعراق وفارس والدولة الفاطمية بمصر، وكلتا الدولتين شيعية تتعصب لآل علي. كذلك من مزاياه انتشار المدارس في العالم الإسلامي، وأشهر مدارس هذا العصر المدرسة النظامية ببغداد أنشأها نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي، وجعل التعليم فيها بالمجان، وفرض لطلابها الأرزاق وكان لها شأن كبير في العالم الإسلامي، فقد كان من أساتذتها أبو إسحاق الشيرازي والإمام أبو نصر الصباغ، وحجة الإسلام الغزالي، والسهروردي الشاعر، وكمال الدين الأنباري، وأبو زكريا التبريزي، ومن نابهي طلابها عماد الدين الأصفهاني، وكمال الدين الأنباري الذي صار أستاذا بها "(١).

ويعد من مزايا هذا العصر الكتب الجامعة، وخاصة معجمي ياقوت الحموي فقد عدهما الأستاذ محمود مصطفى من ضمن مزايا هذا العصر، يقول: " ومن أهم ما بين أيدينا من هذه الكتب معجم البلدان لياقوت الحموي وهو معجم كبير بأسماء البلاد ويعد خزانة علم وأدب لأنه إذا ذكر بلدا أورد تاريخه ومن اشتهر من رجاله .....وله كذلك معجم الأدباء، وهو أكبر وأوسع من معجم البلدان ترجم فيه للنحويين والكتاب والنسابين والشعراء والأخباريين والمؤرخين "(٢).

" ووصف جب هذا العصر بأنه العصر الفضي للأدب إذا صح أن نطلق علي العصر السابق العصر الذهبي، وقال إنه قد تميز بالبراعة والمهارة الفنية التي غلبت على العبقرية والابتكار "(٣).

---

(١) " الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي " محمود مصطفى : ٢ / ١٩ ، مطبعة الحلبي ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧م
(٢) معجم الأدباء : ٢/ ٢٠ .
(٣) Gibb :arabic litevature . p : 82 .

فالخلاصة أن الحياة الفكرية لم تتأثر - مطلقا - بالأحداث المؤسفة التي سادت هذا العصر من حروب ومذاهب وفقر وفساد داخلي وخارجي ، بل على العكس شاهدنا تقدما فكريا وعلميا واسع النطاق وعلى جميع الأصعدة العلمية .

والاقتصاد انعكاس للحالة السياسية ، فكلما اهتزت الحالة السياسية اهتز اقتصاد الدولة ، فاقتصاد الدولة إما منهوبا بسبب الفساد الداخلي والخارجي ، وإما موجها للحروب وتجهيز الجنود ، وجلب الأسلحة والذخيرة ، وغير ذلك من أمور الحرب فلا يهتم الحكام بالزراعة والصناعة والتجارة وهم عماد الحياة الاقتصادية عليهم تقوم وبهم تزدهر وبدونهم تضمحل وتفتقر ، وعلى إثر ذلك كله حدثت هزات اقتصادية كبيرة ظهرت على أثرها المجاعات ، كما انتشرت الفوضى وقل الأمن والأمان ، وأدى ذلك إلى ظهور نظام الإقطاع فخاف الناس من مصادرة أموالهم فقلت المشروعات في معظم أرجاء الدولة الإسلامية فانتشرت البطالة وعم الفقر.

" كانت ظاهرة التفاوت الاقتصادي ، وفرض الضرائب وتذبذب النظام النقدي ونحو ذلك من أبرز الحالات الاقتصادية التي كانت بارزة في مدينة بغداد ، وكانت الثروات الهائلة تتركز في يد فئة قليلة من الناس استغلت وجودها في السلطة ، أو قربها منها فظهرت في المجتمع البغدادي مظاهر الأبهة والتأنق والترف الذي تجاوز الحدود في بعض الأحوال ، وكان الحكام السلاجقة وحاشيتهم تمتد أيديهم إلى أموال الناس ويوسعونهم ظلما وعسفا ، ويجهدون أنفسهم في سبيل الحصول على الأموال "(١) .

وأدى التدهور الاقتصادي والفقر إلى أن اضطر الناس في بعض البلاد إلى أكل الميتة بل أكل بعضهم بعضا من شدة الجوع ، ومنه من أكل عياله كما أشرت سابقا . ومن

(١) " ابن الجوزي " : ٧ – ٨ ، د : حسن عيسى علي الحكيم ، سلسلة نوابغ الفكر العربي ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م .

أسباب تدهور الوضع الاقتصادي الضرائب التي فرضها السلاجقة على الشعب ، وكانوا يطلبون من الخلفاء العباسيين أن يجمعونها من الشعب ، ومن كثرة ما يطلب السلاجقة نجد أن بعض الخلفاء من بني العباس يستثقلون تلك الضرائب فيرفعونها عن الناس في بعض الأحيان ، فها هو الخليفة المستنصر في سنة ٥٣١هـ يرفض الضرائب التي فرضها السلاجقة على المسلمين ، يقول ابن الجوزي في المنتظم : " فمن أي وجه نقيم لك هذا المال ؟ وما بقي إلا أن نخرج من الدار ونسلمها ، فإني عاهدت الله تعالى أن لا آخذ من المسلمين حبة واحدة ظلما فلما سمع هذه الرسالة أسقط ستين وطالب بأربعين ، وأما ما قرر من أموال الناس فأنكره السلطان ولم يكن منه، وأما ما كان من دار الخلافة فتلاشى "(١).

ومع هذا لم يكن العصر مظلما تماما ، حيث نشطت التجارة ، فالذي اشترى ياقوت الحموي هو عسكر الحموي ، وكان تاجرا يجوب أنحاء البلاد من مشرقها إلى مغربها وتوارث ياقوت هذه المهنة ، ومما ساعد على انتشار التجارة وجود عناصر غير عربية في المجتمع الإسلامي ، كما أن سماح الإفرنج لتجار العرب بالدخول إلى بلادهم والعكس ساعد أيضا على ازدهار الحياة التجارية ، وكذلك ازدهرت الزراعة خاصة في مصر.

" وكانت فترات الرخاء الاقتصادي قد حصلت في أغلبها بعد تحرير البلاد من النفوذ السلجوقي ، وفك الحصار عن مدينة بغداد . وقد يكون للسلطة في بعض الأحيان دور في خفض الأسعار ، ففي عام ٥٤٢هـ نادى الشحنة أن لا تباع الكارة من الدقيق إلا بدينار فأغلقت الدكاكين ، وعدم الخبز أربعة أيام ، ثم تراخى السعر "(٢) .

(١) " المنتظم " : ١٧ / ٣٢٠ ، حوادث سنة ٥٣١ هـ .
(٢) " ابن الجوزي " ، د: حسن عيسى علي الحكيم : ١٠ .